

جماليات العمارة عند ميزاب

Aesthetics of architecture in the M'zab

حميدة أحمد

جامعة زيان عاشور – الجلفة – (الجزائر)

Ahmed.hamida17@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/04/30

تاريخ القبول: 2024/04/19

تاريخ الاستلام: 2024/01/28

ملخص:

تكتسي العمارة في واد مزاب منظومة عمرانية متأصلة، مزجت بين الإبداع الجمالي من جهة، وملائمتها مع الحياة الاجتماعية والظروف المناخية للبيئة الصحراوية من جهة أخرى، حيث عكست الهوية الجزائرية من خلال تراثها المتنوع، وبرزت التراث المادي الثقافي والاجتماعي والاقتصادي.

إن الهندسة المعمارية لواد مزاب في عناصرها التشكيلية المصاغة بطريقة ابداعية وجمالية استلهمت أيضا الكثير من المهندسين المعماريين والفنانين التشكيليين، ما جعلها متحف مفتوح وقبلة للسياحة.

كلمات مفتاحية: العمارة، واد مزاب، الابداع، الهوية، التراث.

Abstract:

The architecture of the M'zab valley is characterized by an inherent urban system, combining aesthetic creativity on the one hand, and its adaptation to social life and the climatic conditions of the desert environment on the other hand, because it reflects the Algerian identity through its diversified heritage and has highlighted the material, cultural, social and economic heritage.

The architecture of the Mzab Valley in its plastic elements formulated in a creative and aesthetic way has also inspired many architects and plastic artists, which has made it an open museum and a tourist destination.

Keywords: Architecture, Mzab valley, Creativity, Identity, Heritage.

مقدمة

تتنوع الجزائر وتتميز بالعديد من المتغيرات من منطقة إلى أخرى من حيث الموروث الثقافي والعمراني، وذلك لتعاقب الحضارات والثقافات وأفكار الشعوب التي مرت بها، ومن بين هذه المناطق نتطرق في دراستنا هذه إلى جمالية العمارة عند بني مزاب بغرداية التي تمتاز بطراز عمراني خاص بها، ما يحمل جمالية وصرحا فنيا بالمنطقة، وهو كذلك ما جعل من "منظمة اليونيسكو" تصنفه من بين التراث العالمي منذ "القرن الحادي عشر إلى الخمسينيات من القرن العشرين، بقي وادي مزاب محتفظا تقريبا بنفس نمط السكن وتقنيات البناء التي فرضها المحيط الثقافي الخاص وضرورة التأقلم مع الوسط الفني"¹، تتواجد منطقة بني مزاب في جنوب الجزائر في الناحية الشمالي للصحراء "تتربع على مساحة كبيرة تقدر ب: 86105 كم² تضم حوالي أزيد من 334754 نسمة إلى غاية جوان 2003"²، تحتفظ هذه الولاية بطرازها المعماري عبر كل دوائرها وبلدياتها .

الإشكالية:

من منطلق الزخم المادي والثقافي للتراث الذي تزخر به العمارة في واد مزاب حذا بنا أن نقوم بدراسة هذا الطراز دراسة فنية وجمالية مسلطين الضوء على الشواهد التاريخية التي مرت بها العمارة في واد مزاب بتنوعها، ومن هنا يمكننا طرح الاشكالية التالية:

- ماهي تجليات العمارة في واد مزاب؟ وماهي أنواعها وخصائصها ؟ وانطلاقا من هذه الاشكالية نطرح

التساؤلات التالية:

- ماهي ارهاصات العمارة عند ميزاب ؟

- هل عبرت العمارة الميزابية عن الهوية الجزائرية؟

- هل واكبت العمارة عند مزاب التطور العمراني ؟

أهداف الدراسة: محاولة غرس المعارف والبحث الفني بالجزائر لما يخدم الحفاظ للموروث الثقافي، وابرار الهوية الجزائرية من خلال تراثها المتنوع.

أهمية الدراسة: تعود هذه الدراسة لإبراز الموروث العمراني وتميزه بخصائص ومميزات عن باقي المناطق بالجزائر، مما يجعله متحفا للسواح، وبالتالي استثماره في الجوانب الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، ورفع الذوق الفني في الوسط الاجتماعي من الناحية العمرانية.

¹ ابراهيم بن موسى حريزي، الحضارة العمرانية في واد ميزاب، ب ط ،العالمية للطباعة، تيبازة، الجزائر، 2016، ص 05.

² مديرية الثقافة للولاية غرداية، منشورات ديوان حماية واد مزاب، دار العالمية، د ط، د س، ص 04

1- العمارة التقليدية عند مزاب:

إن الزائر إلى وادي مزاب يتبين له من خلال العمارة التي يسكنها طرازاً بسيطاً من الجانب الهندسي، وهذا ما يجعلها تكتسي طابعاً خاصاً في الفنون التقليدية بالجزائر، وذلك لتوظيفهم لمواد محلية ما يجعلها تتلاءم مع البيئة الصحراوية، كما تتميز بالتماسك فيما بينها ما يبرز تضامناً وتأزر أهلها فيما بينها، ما يبرز تضامناً أهلها فيما بينهم.

وما ذكرناه من قبل يبين لنا التصميم الخارجي أما عن التصميم الداخلي للمنازل "يصادفنا بعد المدخل الرئيسي السقيفة التي تأخذ موقعها عند الباب وتكون ضيقة، وتوجد فتحة تكون عادة بينها وبين وسط الدار وذلك قصد المراقبة، كما تعبر فضاء للانتظار وتحوية المسكن وفي الزاوية المحاذية للشارع عبر زاوية المدخل يوجد المرحاض"¹، تكون هذه الفتحة صغيرة مناسبة من ناحية ارتفاعها إلى طول الرجل المزابي، وبما يخص الإيوان (الحوش) كما يعرف في مصطلحنا العامي، فإنه يسمى عند بني المزاب بـ: "أماس أنتدار فيعتبر فضاء مركزي ورئيسي للمسكن من حيث شكله ومقياسه وتوزيعه الهيكلي لمختلف الفضاءات حوله، إضافة إلى كونها شبه مغطى إلا من خلال فتحة الشباك التي تساعد على إضافة التهوية"².

ومن خلال الفناء هذا تتوزع مجموعة من الغرف كما يطلق عليها تسميات خاصة بهم "غرفت استقبال النساء - اليزقري- ويكون عادة موجهاً إلى القبلة أو نحو المغرب لتسقط عليها أشعة الشمس مباشرة عبر فتحة الشباك الأفقية صباحاً ومساءً ولهذا الغرفة فتحة كبيرة بدون باب، ويحيط بواسطة الدار من الجوانب غرفة النوم - تزكع- بمقاساتها الصغيرة وزودت بدكانة أو مستطيلة وتخصص كوات في الحائط حالت محل الخزانة وتثبت على جدار للتعليق الباب"³.

كما توجد تحت السكن حجرة تؤدي بعض الوظائف التي تحتاجها المرأة في تحضير بعض المواد الأولية مثل: "للرحى الصغيرة والكبيرة - تسرت - من أجل طحن القمح والشعير وغيرها من المواد الأولية والرحى عبارة عن صخرة تثبت فيها خشبة تدار باليد فوق صخرة ثابتة أكبر منها وحوها حوض للتجميع"⁴.

كما يحتوي السكن المزابي على طابق ثاني (علوي) يسمى بلهجة المزابي "تغرغت أو أمسندح، يوفر مساحة واسعة مكشوفة صيفاً وشتاءً، فهنا جزء مسقف وآخر مكشوف يحتوي بأحد زواياه على الفتحة التي تطل على الطابق الأرضي"⁵.

يمكننا القول أن العمارة عند مزاب انفردت وتميزت بخصائص لا تجدها في منطقة أخرى ومن أبرزها:

- لا يجوز أن يرتفع سور الدار الموالي للشارع فوق 7.50 متر.
- لا يجوز للجار رفع الجدار عن جاره ويحجب عنها الشمس والهواء.
- لا يجوز للجار استغلال المساحة المتروكة لأنها ليست ملكاً له .

¹ محمد جودي، واجهات مساكن قصور سهل وادي مزاب، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، قسم الآثار، 2006/2007، ص 14.

² لالوت بأحمد، زعباب خضير، المسكن التقليدي الهندسة المعمارية والعرف بالقطاع المحمي للوادي مزاب، ديون حماية وادي مزاب، غرداية، الجزائر، 2014، ص 10.

³ محمد جودي، المرجع السابق، ص 15.

⁴ إبراهيم بن موسى حريزي، المرجع السابق، ص 32.

⁵ محمد جودي، المرجع السابق، ص 15.

- لا يجوز للجار يجري الماء غديره أو ميزابه نحو سطح جاره وحتى ماء الغسيل أو ماء وسخ يضر جاره.
- لا يجوز أن يفتح نافذته مهما كان حجمها على سطح جيرانه.¹

وكل ما تم ذكره سابقا نتيجة توارث هذه القوانين عبر الأجيال السابقة ما حافظ على هذا النمط العمراني، ما يبرز تحضرها وتمدد هذه الفئة من المجتمع الجزائري، وافتخارهم بمورثاتهم الثقافية والعمرانية.

2- الطراز العمراني من خلال أماكن التبعد :

اهتم بني مزاب ببناء المصليات والمساجد وذلك لانتمائهم الاسلامي ودين للدولة بطراز يناسب المنطقة والبيئة التي يعيشون بها، وذلك "بالبساطة المعمارية إلى أبعد حدود على كل مستويات جاءت هذه المساجد في البداية عبارة عن بيوت للصلوات ومئذنة فقط من دون صحن أو مرفق آخر، وأخذ مخططها الشكل المنحرف وجزء أوسط من بيت الصلاة غير مسقوف، ومع مرور الوقت وسعت مما أعطى مساجد بمخططات ذات شكل مضلع غير منتظم"²، وكانت هذه المساجد تبنى في أعلى مكان بالنسبة للسكنات، والغاية من ذلك "رؤية الفجر وغروب الشمس للمؤذن وانتشار الصوت، كما أن وجود المسجد في الوسط يساهم في تقريب المسافات وتوزيعها بالسوية بين أبناء البلدة للتيسير عمارتها"³، كما امتازت المساجد عند بني مزاب بمئذنة واحدة باستثناء المسجد العتيق الذي يحتوي "بمأذنتين إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة وهي مأذن ذات قاعدة مربعة وشكلها العام على هيئة هرم متطاول، والذي له علاقة بالبيئة والطبيعة ومواد البناء"⁴، ولم يهتم بني مزاب بتوظيف الزخارف والخطوط في مساجدهم وامتازوا بالبساطة وذلك اتباعاً لمذهبهم الإباضي ومن خصائص ومميزات مساجد ومصليات بني مزاب .

- البساطة والخلو من الزخارف والنقوش .
- عدم نسبها إلى الأولياء الصالحين والأضرحة وخلوها من القباب ..
- الشكل الهرمي لمآذنها، بنيت على مرتفع بقلب المدينة .
- الهندسة المستطيلة "قاعة الصلاة".⁵

3- العمارة الاقتصادية عند بني مزاب:

لم يهتم بني مزاب بالسكن والمساجد والمصليات فقط بل اهتموا كذلك بالجانب الاقتصادي وتخصيص فضاءات داخل المجمعات السكنية بعيدة عن المساجد والمصليات، وذلك للفصل بين المنشآت الدينية وأماكن الاكتظاظ من أجل ما تتطلبه الديانة من هدوء وخلوة في التبعد وكان شكل الأسواق كصحن البيت، إلا أنه في الفضاء ويحوطه من كل

¹ عبد الوهاب بن الشيخ عبد الرحمان بن عمر بكلي، الشيخ القراي، طبعة خاصة، دار مساحات للطباعة، قسنطينة، الجزائر، 2015، ص 138.

² ينظر: عبد الوهاب بن الشيخ عبد الرحمان بن عمر بكلي، الشيخ القراي، المرجع نفسه.

³ محمد جودي، المرجع السابق، ص 12.

⁴ محمد جودي، المرجع نفسه، ص 13.

⁵ صالح بن عبد الله أبوبكر، القرارة من دخول الاستعمار الفرنسي الى ما بعد الحرب العالمية الأولى، نشر جمعية تراث غرداية، الجزائر، 2015، ص 56.

جانب دكاكين وممرات للدخول إلى وسط السوق، حيث كان يسمى بالمصطلح المحلي بـ "الدلالة" أي معناه مزاد علني "قد بني بشكل غير منتظم، بل أخذت أشكال متعددة ومتقاربة في آن واحد، وهذه الأشكال تتراوح بين المثلث والمستطيل، وكلها في شكل مساحات ذات واجهات متعددة، وتفتح على ساحة السوق أبواب الدكاكين المحيطة بها"¹، كما يمكننا القول قد عادت هذه الأسواق على مزاب بازدهار التجارة في مدينتهم مما أصبحت مقصد للتجار والسواح لاقتناء بعض الصناعات التقليدية التي يمارسونها مثل: الزربية، التي لها مكانة في جميع أرجاء الوطن وخارجه، وغيرها من المحلي، الفخار....

4- القصور عند مزاب :

كل ما سبق ذكره من مساكن، مساجد ومصليات، وأسواق لم تكن هذه المجمعات السكنية موزعة توزيعا اعتباطيا، إنما كان لها تنظيم خاص داخل أسوار لما تشكل لنا قصورا وتحتوي منطقة بني مزاب على مجموعة من القصور، ومن خلال كل هذا نتطرق إلى هذه القصور من خلال تاريخها وتوزيعها في المنطقة:

4-1 قصر تاجنينت (العطف): [أنظر الملحق رقم (01)]

تأسس قصر العطف سنة 1012، على يد خليفة بن ايغور وقد كانت المحطة الأولى لانطلاقة حركة عمرانية عبر وادي مزاب مبنية على أسس وقواعد فريدة من نوعها²، وهو من القصور الحضارية التي تعود إلى مئات السنين وأول معالمها التاريخية وكلمة تاجنينت تعني: «الحديقة الصغيرة، كما تحمل معاني أخرى، وهو أول القصور نشأة»³.

4-2 قصر بنورة (آت بنور): [أنظر الملحق رقم (02)]

سمي بهذا الاسم لاختلاف المؤرخين ونذكر أصل تسمية هذا القصر «اسم قبيلة بربرية أسست عام 457 هـ - 1065م قرية بنورة على جبل منقطع عن باقي الهضبة»⁴، وهناك من يرى أن القصر والتسمية يعود إلى «سنة 1046م كما أنه يرجح سنة 1047م كسنة تأسيس لها»⁵، كما تتعدد التعريفات لاسم بنورة «نسبة إلى اسم جد العائلة الأولى التي عمرت القصر، القصر الذي بني فوق صخور تشكل حصن دفاع طبيعي»⁶، وقد اشتهر هذا القصر

¹ صالح بن عبد الله أبويكر، المرجع السابق، ص 56.

² ينظر: لالوت با حمد وآخرون: دليل المواقع والمعالم التاريخية، ديوان حماية وادي مزاب وترقيته، غرداية، الجزائر، 2013، ص 24.

³ جابر بن با سعيد بن موسى الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب، ط1، طيف للطباعة، غرداية، الجزائر، 2016، ص 21.

⁴ يوسف بن بكير الحاج سعيد، الهوية الميزابية، ط2، المطبعة العربية، غرداية، 2014، ص 17.

⁵ محمد جودي، مرجع سابق، ص 10.

⁶ جابر بن با سعيد بن موسى الحاج سعيد، المرجع السابق، ص 22.

بخلاف القصور الأخرى «بمسجده العتيق وبواجهته الدفاعية ومساكنه المحصنة، وقد عرف توسعا بعد اندثار جزئه العلوي الذي يمثل القصر القديم»¹.

وإلى يومنا هذا مازالت تلك الآثار لهذا القصر باقية مما يعني أن هذا البناء كان في غاية الإبداع فهو «محاط بسرو دفاعي تتخلله أبراج دفاعية، يتوسط القصر مسجد قديم، تعلوه مأذنة هرمية الشكل ذات قاعدة مربعة حيث تشرف على صحن كبير»². وكما جرت العادة في أعلى المأذنة توجد بعض الفتوحات لغرض التهوية.

4-3 قصر تغردايت (غرداية): [أنظر الملحق رقم (03)]

يقع هذا القصر في وسط ولاية غرداية ويعد من أشهرها وكغيره من القصور له تسمية خاصة به، فقد تضاربت الأقوال واختلف المؤرخون في أصل هاتاه التسمية فـ: «التفسير البربري لكلمة تاغردايت الأرض الصالحة للزراعة على ضفاف الوادي، وقيل أيضا أنها تصغير لكلمة أغرداي وتعني الجبل»³. ولم يتميز هذا القصر بالتأثيرات الفنية الجديدة بإدخال الزخرفة والمنمنمات والألوان.

لقد كان هذا القصر من أهم القصور من الناحية الاجتماعية والاقتصادية إذ أنه يقع في جنوب ساحة السوق في وسط غرداية فقد تأسس «سنة 1048 يشتهر بساحة سوق»⁴، ويعد قصر تاغردايت من أروع القصور وتشكيلاتها الفنية، إذ أنه يستقطب العديد من السواح والأجانب.

4-4 قصر بني يزقن (آت يزجن): [أنظر الملحق رقم (04)]

يقع هذا القصر على هضبة في أرقى الأماكن لوادي مزاب حيث «مع نهاية القرن 08 هجري وفي عام 1321م تحديدا اندمجت خمسة قرى قديمة على مقربة من المدينة الحالية وهي بُوكَيَاوُ، تُوشِينُ، أَجْنُونَايُ، تَفِيلَاكْتُ»⁵، وهاته القرى شكلت لنا القرية الخامسة سمي بها القصر بني يزقن، وهذا القصر يمتاز بسوره الذي يحيط به وهو ذو نمط معماري ممتاز «وقد بدا في تشييد السور سنة 1860م حيث يبلغ طوله 2500 م ويصل ارتفاعه إلى 3 أمتار، وتتخلله أبراج للمراقبة من أهمها برج بوليل و برج با دحمان ومدخلين رئيسيين هما الباب الشرقي والباب الغربي»⁶.

4-5 قصر مليكة (آت أمليشت): [أنظر الملحق رقم (05)]

¹ لالوت با أحمد وآخرون، المرجع السابق، ص 30.

² لالوت با أحمد وآخرون، المرجع نفسه.

³ بالحاج معروف، العمارة الإسلامية، مساجد ميزاب ومصلياته الجنائزية، ط1، دار قرطبة، الجزائر، 2007، ص 57.

⁴ لالوت با أحمد وآخرون، المرجع السابق، ص 36.

⁵ محمد جودي، المرجع السابق، ص 10.

⁶ لالوت با أحمد وآخرون، المرجع السابق، ص 42.

سمي هذا القصر نسبة إلى «آت مليكش الذين عمروه ويتميز القصر بصغر ارتفاعه الذي يشكل منحدرات صعبة، كما توجد أعلاه سوق فريدة قرب مسجده إلى جانب احتواءه أقدم مقبرة بمزاب»¹.

أما بالنسبة لتاريخ إنجاز هذا القصر فيعود «إلى سنة 576 هـ / 1385م من قبل رجال ينتمون إلى قبيلة مليكش البربرية حسب الشيخ طفيش الذي يشير إلى أن هذه القبيلة تنتشر في الشرق الجزائري»²، وبالنسبة لتخطيط هذا القصر والذي يعتبر آخر قصر في ولاية غرداية، فقليل أن له «بنايات تحصينية على الواجهات وتتخلله عدة أبواب أشهرها بن طراش، باب أميدول، وغيرها، كما تشتهر به بعض المصليات الجنائزية»³.

أما الآن فحديثنا عن بعض النماذج من القصور التي أنشأت خارج وادي مزاب والتي تعبر عن صورة واضحة عن عمارة المساجد والتي تعد تحف فنية كذلك، وتتميز بأنماط معمارية قديمة قدم السنين.

4-6 قصر القرارة: [أنظر الملحق رقم (06)]

سمي نسبة إلى دائرة القرارة والتي تبعد عن وادي مزاب بحوالي 110 كلم، ويعد هذا القصر أيضا من نماذج عمارة وادي مزاب والذي «تأسس سنة 1630م يتميز بنفس النمط المعماري لقصور وادي ميزاب، وتمتاز القرارة بمسجدها العتيق الذي تعلوه مأذنة هرمية الشكل كما تشتهر بسوقها التقليدي وبوحداتها الغناء والفسيحة التي تسقى من وادي زقير، وتشتهر بسد فوساع الذي أنجز سنة 1710، وقد صنف هذا القصر كتراث وطني سنة 1998م»⁴.

4-7 قصر بريان (آت برقان): [أنظر الملحق رقم (07)]

ويقع هذا القصر في دائرة بريان والتي تبعد عن غرداية بحوالي 45 كلم، هذا القصر مثله مثل باقي القصور كانت له تسمية خاصة، فهي «مشتقة من (آت أبرقان) بمعنى أصحاب الخيم الصوفية، لأن كلمة (أبرقان) تعني في اللغة الأمازيغية، الخيمة المصنوعة من الوبر أو من شعر الماعز»⁵، فقد كان تأسيس قصر بريان «سنة 1690، فوق هضبة صخرية على مساحة تقدر بـ: 27 هكتار، ويشرف على وادي السودان ووداي بالوح وأنشأت على ضفافه واحات»⁶.

¹ جابر بن با سعيد، بن موسى الحاج سعيد، المرجع السابق، ص 24.

² بالحاج معروف، المرجع السابق، ص 60.

³ لالوت با أحمد وآخرون، المرجع السابق، ص 48.

⁴ لالوت با أحمد وآخرون، المرجع نفسه، ص 64.

⁵ بالحاج معروف، المرجع السابق، ص 64.

⁶ لالوت با أحمد وآخرون، المرجع السابق، ص 70.

خاتمة:

من خلال دراستنا المتواضعة لتاريخ ونشأة العمارة في واد ميزاب (غرداية) نلاحظ أن بني مزاب كان لهم نوع خاص من الطراز المعماري، وذلك من خلال القصور، المساجد، السكنات، والأسواق، وتكيف كل هذه المنشآت بما يخدم الفرد المزابي داخل مجتمعه، مما ميزهم وأصبح لهم خصائص في إبراز الثقافة والهوية الخاصة بهم، هذا ما يجعل من هذه المنطقة متحفا على الهواء الطلق للسواح وزائري المنطقة، وذلك من أجل التمتع بجمالية العمران المزابي

قائمة المراجع:

- 1- ابراهيم بن موسى حريزي، الحضارة العمرانية في واد ميزاب، ب ط ،العالمية للطباعة، تيبازة، الجزائر، 2016.
- 2- بالحاج معروف، العمارة الإسلامية، مساجد ميزاب ومصلياته الجنائزية، ط1 ، دار قرطبة ، الجزائر، 2007.
- 3- جابر بن با سعيد بن موسى الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب، ط1، طيف للطباعة، غرداية، الجزائر، 2016.
- 4- صالح بن عبد الله أبوبكر، القرارة من دخول الاستعمار الفرنسي الى ما بعد الحرب العالمية الأولى، نشر جمعية تراث غرداية، الجزائر، 2015.
- 5- عبد الوهاب بن الشيخ عبد الرحمان بن عمر بكلي، الشيخ القراي، طبعة خاصة، دار مساحات للطباعة، قسنطينة، الجزائر، 2015.
- 6- لالوت با حمد وآخرون: دليل المواقع والمعالم التاريخية، ديوان حماية وادي مزاب وترقيته، غرداية، الجزائر، 2013.
- 7- لالوت بأحمد، زعباب خضير، المسكن التقليدي الهندسة المعمارية والعرف بالقطاع المحمي للوادي مزاب، ديوان حماية وادي مزاب، غرداية ، الجزائر، 2014.
- 8- محمد جودي، واجهات مساكن قصور سهل وادي مزاب، رسالة ماجستير ،جامعة تلمسان، قسم الآثار، 2006/2007.
- 9- مديرية الثقافة للولاية غرداية، منشورات ديوان حماية واد مزاب، دار العالمية ،د ط، د س.
- 10- يوسف بن بكير الحاج سعيد، الهوية الميزابية، ط2، المطبعة العربية، غرداية، 2014.



الملحق رقم (01) قصر تاجنينت بالعطف – غرداية-



الملحق رقم (02) قصر بنورة (ات بنور) – غرداية



الملحق رقم (03): قصر تغردايت – غرداية-



الملحق رقم (04): قصر بني يزقن – غرداية -



الملحق رقم(05): قصر مليكة – غرداية –



الملحق رقم (06): قصر القرارة – غرداية-



الملحق رقم (07) : قصر بريان – غرداية –